# كورونا..
# الثقب الأسود لوجودنا

**عادل خزام**
شاعر إماراتي

إنها الأرض العجوز
تتدحرجُ مثل جرّة فخّار على منحدر
وقريبا ستصطدمُ بالصخرة الناتئة
***
لكننا لن نموت
نتباعد، لكن لا نفترق
نبكي على الأحبة إن غادروا، وداعا
ونفرحُ. أطفالنا آتون
يولدون صلعان مثل أقمار صغيرة
ويضيئون حزن هذا الكوكب
***
وداعا...
لبس الموت حذاء عدّاء
وصار يركض أسرع من أحلامنا
لكنه لا يقوى مثلنا على النفس الطويل
وجاء الخوف
مندسا في لعاب غيمة داكنة
لكن مطره الأسود
اختلط بدموع المرضات
والأرواح التي صعدت للسماء
رأيناها طائرات ورقية أفلتتها يد أصحابها
ها نحن نلوح لها من وراء النوافذ
اذهبي بسلام،
لا محالة سيعم السلام
***
انظري..
في هذه الحرب
الطبيب هو الجنرال. ببزّة بيضاء
وبمسدس هو الحقنة
الشوارع الخالية،
ميادين فورمولا لسيارات الإسعاف
والدبابات تطلق قنابل الكلور على الدكاكين المغلقة
ونحن
مثل زهر عباد الشمس
نذهب إلى عزلة الليل عند الثامنة مساء
وفيها نقلّب صوت سؤالنا المخنوق
ماذا يجري؟
***
إنها الأرض العجوز
تتدحرج مثل كرة كريستال على منحدر
وقريبا ستصطدمُ بالصخرة
لأول مرة،
المستشفى مطار المغادرين إلى الآخرة
السوبرماركت متحف الجوع
لا أعياد ميلاد في الليموزين الطويل
لا مصلين معًا
كأن على الفرد أن يواجه الله وحيدا
كأنما هذا
مجرد إحماء ليوم قيامة قادم
***
بشرٌ على الشرفات يغنون: المجد للحياة
قباطنة طائرات يتعرفون مجددا على اليابسة
قصص حب في عنابر العزل، وقصص خيانات
مقابر ومحارق لجثث جماعية ملفوفة بالبلاستيك
ماذا يجري؟
هل الأرض العجوز تنفضُ فستانها البالي
هل تزفها الأشجار إلى نهر البدايات
لتحبل بالحقيقة وتُرضع الأقلام حبر نهديها الضامرين
أم أنهم السماسرة، أشعلوا النار في الغابة
وناموا غافلين عن تطاير شررها؟
***
لأول مرة..
اسحب يدك من يدي، لنتحد
تلثّم، أنت حقيقي بقناعك، لا بوجهك
وأنتِ يا حبيبتي
مدي يد القفاز، سأضع خاتم الحب في إصبعه
الشرطة مشغولون يحمّمون المدينة بالصابون
اللصوص محبوسون في فكرة التوبة
وأنت تسألينني
لماذا لم تتنبأ مذيعة الطقس بعاصفة الفراغ هذه
وأنا أجيبك نعم
نعم فصلنا الدين عن السياسة
والآن علينا أن نفصل العلم عن السياسة
وغدا
علينا أن نفصل النار عن السياسة
من أجل هذه الأرض العجوز

الأرض التي انتظرت مليار سنة، بفستان فرح
ولم يتم زفافها
الأرض التي كلما ذهبت إلى المرحاض
سقطت حضارة، وقامت غيرها
والبشر الضعفاء
أكلوا الغزال والحمامة والجراد والكلب
حتى لو استمعوا لدرس الحكمة هذا
لن يفطنوه
ومآلهم في النهاية أن يأكلوا بعضهم
***
ببدلة أنيقة استقبلتُ العام 2020
مفتونًا بشكله الرقمي وهو يشبه
ورّتين تسبحان بأمن في بحيرة الزمن
لكني حين قفزت في قطاره السريع، توقف
وتبع ذلك
شللٌ في أجنحة الطائرات
موتٌ وهمي لأبطال السينما الوهميين
هروبٌ جماعي للاعبي الدوري الإنجليزي
ولا أحد يريد فانيلاتهم المرمية على الأرض
وفي اليونان
امرأة تلدُ طفلا ميتا على قبر سقراط الفيلسوف
وفي الصين الحمراء
مزارعٌ يفتح ضريح كونفوشيوس، ويتركه نهبا للخفافيش
ولا أحد في أميركا إلا وحمل البندقية
إنه موسم صيد المرايا
إنه الفراغ في داخلك، يلتقي بالفراغ خارجك
ويتعارفان كمامة بكمامة
وأنت يا حبيبتي
تسلّقي سور مدرسة الخوف، تجديني خارجا بانتظارك
وأنت يا جدي الطاعن في التسعين
كُح كما كنت تكُحُّ يوميا،
يطربني إيقاع رئتيك المعطوبتين
***
لم يبق لنا سوى ظلالنا
ووجوه أصدقاء تتحدث مع صورهم
إنها عطلة الحواس نقضيها على شاشة الهاتف
إنها الأرض العجوز
ملّت من الجلوس على بيضها الفاسد
بيضها الذي ظنه العلماء، كريات الدم البيضاء
وظنه جنرالات الحرب، كريات الدم الحمراء
فاختلفا
ونحن سقطنا ضحايا العمى اللوني هذا
لم نعد نميز رجال الأعمال عن صيادي السمك
ولا المدرسات، عن بائعات الساعات المقلّدة
فُتحت السجون،
لأن البيوت صارت سجون أصحابها
أغلقت المدارس،
ونواطيرها الفقراء فرّوا إلى قراهم البعيدة
ثم رأينا الطب، وهو رجل ثريٌ في العادة
يُخرج لنا جيبيه الفارغين من بنطلونه الحرير
أي كذبة إذن، نصدق
فم المذيعة، أم نهديها السليكون؟
رؤساء العالم المتقدم، أم أمهاتنا؟
الكل يتحدث عن فايروس قاتل
عن العبث الكوني وقد استشرى
وعن المراهقة المتأخرة لملك الموت
***
ماتت أرقام كثيرة..
هكذا يقول عدّاد المرض اليومي
بكت إيطاليا، واختفى كازانوفا من شوارعها
كأن القدر
يلعب الشطرنج ضد الريح، كي يهزم الماء
كأن التاريخ المنسي، وجد نعليه الضائعين
وقرر أن يمشي باتجاهنا
نحن الجالسون في أمان الحضارة
المصفقون لسيرك الخلود
كنا نخاف لو عطس الجبل، بركانه
صرنا نخاف لو سال لعاب قرد في المختبر
***
وأنا، لا زلتُ في نظر الأطباء، بطاقة صرّاف آلي
وفي نظر المحامين، تهمة ملفّقة
أتلقى عروض التأمين على حياتي، أكثر من سياراتي
كيف إذن سيتركونني أموت بذرة غبار؟
من سيبقى ليحضر عرس الأرض بعدي
الأرض، بالونة الهيليوم وقد انفلتت من يد طفلها
الأرض
بطيخة خضراء في يد لاعب كرة سلة مبتدئ
والكل بانتظار أن يسددها
في الثقب الأسود لوجودنا
***
إنه عام كورونا
لا حركة تظهر في كاميرات مراقبة العالم
الملائكة تجمعوا على أسطح العمارات بلا عمل
باصات المدارس المهجورة في الباحات،
اقتحمتها قرود الغابة
***
نحن لا نرى الموت
لكن نسمع صوته صاخبا في هذا الصمت
***
يفتش الشعراء عن الحقيقة في أدراجهم
تقول أمي: عليك بالعسل والليمون
لا أحتمل أن أراك مصابا مثل ملكة بريطانيا
صديقي خوليو المدريدي خسر خالاته الثلاث
سمعنا رعدا حزينا في سماء أوروبا
وغيمة بعد غيمة
لوّن الرسام السماء بأجنحة الغربان
ودمعة بعد دمعة
ركّب الموزع الموسيقي لحنا فوضويا وسماه: زعيق الأمل
ها هي البشرية تضحك على أساها
ها هي أحصنة السباق من الشرق والغرب
اصطدمت عند خط الاستواء
والناس، لأول مرة
أدركوا أن التعادل فوز للجميع.
***
ال الكورونا: تأمل في الفراغ، تراني
مرة كحاجز زجاجي بينك وبين العالم
ومرة على شكل خوفك من اللا شيء
فإذا جلست وحيدا،
اخلع نظارة الأبيض والأسود
مد عنقك من النافذة واصرخ: كفى
الأرض العجوز تختنق في كمّامتها
وأغصان الأشجار، لن تحتمل لبس القفاز إلى الأبد
غادر طائر الحرية عشه، بحثا عن قفص
***
الآن
إذ يقولون ألمانيا مريضة بضعفها!
وعيادات الأسنان فيها، تعالج من عضّ يد الحسرة
الآن
والشعراء في نيويورك يتبرعون بحرق قصائدهم
فحما لقطارات نقل الجثث
إنه عام الكورونا
عاصفة الغبار الملقح ببذرة الموت
كحّة العالم وقد أصيب بالربو
فدعينا يا حبيبتي نأمل وننتظر
على المطلق، ماذا سيفعل للمبتهلين له
على الصبر، هل هو أفضل من حبوب الاكتئاب
على النسيان، هل سيغسل شوارعنا غدا
أم إنها الأرض العجوز
فقط
تحيضُ في دورتها الكوكبية
تبدّل دمها وريشها وجلدها وناسها
وهي تتدحرج في فضاء الأبدية
وتتقاذفها الأرجل مجانا في ملعب الكون الفسيح.

لوحة الفنان مجدي ظواهري

---

### اجلس في البيت

# هنا العزلة.. هنا تكتئب الحياة

**وسام حمدي**
صحافي تونسي

لا شك بأن لحظة النهاية لم تحن بعد، ولا شك أيضا أن الأرض بترابها وسمائها وكائناتها الحية والجامدة ما زالت قابلة لتنفس هواء آخر جديد بعيدا عن رياح الوباء التي عصفت وتريد أن تفتك بالعماد الأساسي للكون وعقله المدبر، إنه الإنسان أو خليفة الله وظلّه في الأرض.

لا شك أيضا أن هناك متسعا آخر من الحياة وأن العالم سيتخطى أزمة كورونا كما تخطّى منذ القدم أبشع الحروب الدموية والوحشية التي جمعت في البدء البشر بالطبيعة أو تلك التي جمعت الإنسان بالإنسان تحت شعار غريزي واحد قوامه الحفاظ على البقاء، وكما تجاوز واستوعب أو هدم وأعاد البناء في حقبات كثيرة مرّ فيها بأصعب محن الطبيعة وأوبئتها القاتلة كالطاعون وغيره...

إلى أن تأتي تلك اللحظة المشتهاة، التي يتمنى كل امرئ أن يُسعفه حظ العمر ليقول فيها لقد عشنا في عام 2020 سنة قحط لخّصت كل أفلام هوليوود في فصل واحد عنوانه الحصار والعزلة المعطلان لرئتي الحياة وقلبها النابض، على الإنسان أن يعترف الآن وقبل الغد مطأطأ الرأس بالعجز عن إدارة الأزمة وعدم التهيؤ لمجابهتها علميا وطبيا وخاصة نفسيا بعدما خيّلت له كل أساطير العالم المعيش أن باستطاعته الآن لا فقط ترويض الأرض بل التحليق في رحاب أوسع لخوض حروب سريالية في كواكب أخرى غير كوكبه الأم.

لقد كسر فايروس كورونا المستجد نمطية سلوكات وقواعد عيش البشرية المعتادة وتمرّد على كل شيء ليجعله مؤجلا إلى أجل غير معلوم، فارضا على الإنسان ضوابط حرب جديدة حددّها لوحده دون أن يرسم بدايتها ولا نهايتها ولا كيفية هزمه والشفاء منه.

فرض العدو غير المرئي سلطته على الجميع غير عابئ بلغة القوي ولا بتودد الضعيف، لا بأذكار ودعوات المسلمين ولا بتراتيل اليهود والمسيحيين، فجعل كل شيء فيه بصيص أمل في الحياة مؤجلا ولم يترك سوى الخوف والموت يتربّعان على الأرض ويحاصرانها من كل زواياها شرقا وغربا، شمالا وجنوبا.

تمرّد الوباء وجاب البسيطة عرضا وطولا ناخرا جسد العالم ومنقلبا حتى على أبسط أدبياته ومغيرا بوصلته، فنقل حتى خطابات الحكومات المتصلّبة والجشعة من النقيض إلى النقيض، ليبدل نهجها من رفع شعار "لا تؤجّل عمل اليوم إلى الغد" إلى التوسّل إلى مواطنيها بتأجيل كل شيء وتركه جانبا إلى حين أن يغفو ربما الفايروس أو ينام ومن ثمة يذهب إلى حال سبيله بعدما حصد الأرواح بلا تفريق وبلا تمييز.

كل ركن في العالم بات في زمن الوباء أشبه بمدينة أشباح أو قرية مهجورة، إنها العزلة المفروضة على البشر من عدو لا يؤمن بفصول القانون الدولي ولا بمواثيق الأمم المتحدة وحقوق الإنسان الكونية ولا بشعار "أميركا أولا" ولا بمنامة أردوغان الحالم بزعامة العالم الإسلامي ولا بثأر القيصر بوتين من قوى الغرب ولا بتدرّج الصين الناعم لخلط الأوراق من جديد لفرض سياسة الأمر الواقع قصد تغيير قواعد لعبة قيادة العالم مستقبلا.

الوباء عدو البشرية هذا، عطّل كل محركاتها، لقد أجل ضرورة الإنتاج ووضع عصاه الغليظة في عجلة وسائله وفي عجلة الاقتصاد برمته، كما طعن بسكينه خاصرة الدنيا، لقد أجّل العمل، أجل الحب، أجل العناق، أجل كل المواعيد دون أن يعطي الرزنامة الجديدة التي يريد أن يفرضها.

يتسلّى الناس الآن بعزلتهم عن العالم الخارجي ويستمتعون بأوقات خلوتهم القسرية، ليرفع كل واحد منهم شعارات مهدّئة عنوانها "ما أجمل العزلة، ما أروع الحجر الصحي إنه يتيح للإنسان إعادة اكتشاف نفسه واكتشاف أسرته ومحيطه عن قرب بعدما أخذته مشاغل الحياة والعمل والالتزامات المهنية المضبوطة بمواقيت محددة".

يطمئن، شق آخر نفسيته ويعدّل مزاجه وينجح مؤقتا في ترويض هيجانه، كابتا كل ما في جسده من رغبات بالتوجه إلى بدائل أخرى ليل نهار، كالإبحار في عالم الإنترنت بما يحتويه من محامل تواصل اجتماعي توفر له بمجرد نقرة بسيطة التحادث مع من يريد في أي وقت يريد أو يبحث في محركات البحث عما يريد أن ينهل من الدراسات والبحوث أو الكتب ليحمّلها ثم يقول "إنها نعمة، إنها فرصة سانحة لتثقيف الذات وتغذيتها بالعلم والمعرفة".

> **في عزلة الوباء، صار كل شيء روتينيا وأكثر رتابة ومللا من نسق الحياة العادية التي أجبرت من هم في الحجر الصحي حتى على العودة إلى الحياة البدائية في أدق تفاصيلها وجزئياتها**

وكما يُطرح السؤال راهنا عن مدى صمود الجيش الأبيض الطبي في مقاومة الوباء إلى حين التمكن من كبح جماحه باكتشاف مضادات له، يُطرح أيضا السؤال الأهم إلى متى سيقاوم الإنسان هذه العزلة؟ العزلة التي جعلت من عالمه أشبه بسجن من فئة خمس نجوم لكن ليس بإمكانه أن يغادره متى يشاء، فإن تمت مغادرته سيكون ثمن الفاتورة غاليا، فإمّا الموت وإمّا دفع الغرامات المالية وقضاء عقوبات السجن التي تفرضها الحكومات على كل من يخالف تراتيب الحجر.

كيف سيواصل الناس المقاومة وهم يدركون حقيقة أن الخوف مستمر وأن الوباء سيعاشر أكثر ما يمكن من الوقت الأرض إلى حين وجود علاج للشفاء منه بعدما غرس أنيابه في كل مكان دون مهابة من تاريخية الإنسان ولا حضارته ولا ما قدّمه من منجزات فريدة للكون.

إلى متى سيصبر الموظفون مهما كان تقاعسهم أو عدم انضباطهم على حتمية "العمل عن بعد" وهم الذين تعوّدوا على سلوكيات يومية فرضها واقع كان يقال عنه إنه روتيني يبدأ من إلقاء التحية لحارس مقر العمل مرورا إلى احتساء القهوة مع المقربين من الزملاء والأصدقاء وصولا إلى أدق التفاصيل المهنية بمتعتها أو بتشنجاتها المعتادة؟

يعتقد الناس الآن وهم في ذروة تفشي كورونا أن كسر الحصار محسوم وأن اللجوء إلى بدائل الموسيقى أو الرقص أو الرسم والمطالعة والتفرغ للكتابة، وإن كانت حلولا مؤقتة، قادر على تعويض مغامرات العالم الأرحب والأوسع وأنه العلاج الأمثل لتحدي الخوف المحفوف بشبح الموت.

يقول جلال الدين الرومي "أطلق عنان نفسك كي تنجرف صوب من تحب"، لكن في حضرة كورونا ما عسى الإنسان أن يفعل سوى أن يتفادى مُكرها حضن أمه أو تقبيل يديها، ما باليد حيلة سوى أن يؤجل أيضا معانقة من يحب أو أن يلغي صلاة الجماعة أو أن يهمل موعدا ضربه مع صديقه المفضل في حانتهما المعتادة لاحتساء ما تيسّر من النبيذ للنقاش في حدث ما أو الجدال في فكرة ما لشفاء الروح من تعبها.

في عزلة الوباء، صار كل شيء روتينيا وأكثر رتابة ومللا من نسق الحياة العادية التي أجبرت من هم في الحجر الصحي حتى على العودة إلى الحياة البدائية في أدق تفاصيلها وجزئياتها عبر التعامل مثلا بملصقات وتشفيرات ورموز عليها أسهم وعلامات تُلصق على جدران أو أبواب المنازل ومداخلها، لتُملي على كل واحد ماذا يجب عليه أن يفعل قبل أن يدخل بيته وماذا وجب عليه أن يستعمل من معقمات طبية ومضادات تلافيا للإصابة بكورونا أو خوفا من نقلها إلى الآخرين.

في زمن كورونا، لا معنى لحياة تربط الفرد بمجتمعه أو بمحيطه الأسري من بوابة افتراضية قوامها وسوم وترميزات ذكية مصطنعة يعتمدها فيسبوك أو إنستغرام أو واتساب إلخ.. لا تزال اليوم ولن تكون قادرة غدا على التعبير ولا على أن تكون بديلا لوسائط العالم الكلاسيكية المثلى كاللغة وعمق دلالاتها أو مختلف الحركات والإشارات التي ابتدعها العقل البشري للتواصل مع الآخر ولإبلاغ مشاعر السلام أو المحبة.

ليس هذا الصراع الأول الذي يخوضه الإنسان مع وباء، كما أنها ليست الحرب الأولى في التاريخ، لكن الفرق بين الحروب السابقة وبين مصارعة كورونا أن الأخيرة تضع الجميع تحت مقصلة واحدة لا تفرق بين عدو وحليف كما كان الأمر في الحربين العالميتين الأولى والثانية. كوفيد – 19 لا يعترف ولا يفرق بين "حلفاء" و"محور" ولا بين شيوعي ورأسمالي ولا بين شرق وغرب، إنه غول داهم يريد إنهاء تاريخ ما وفتح صفحة جديدة يخطّها بحصد أرواح الأيديولوجيات وبناء نظام آخر لا يدرك أحدا إلى الآن شكله أو مرتكزاته وأدبياته.

"هنا كورونا، هنا تنعدم الحياة"، هذا عنوان درس جديد على الإنسانية الاستخلاص من عبرته وحفظ رسائله عن ظهر قلب كونه أزال المساحيق وعرّى وجه البشرية، كاشفا عن حجمها الحقيقي وعن عجز الإنسان بكل طروحاته وبعولمته وتقدميته فكريا وعلميا وبأنظمته وتنوع أيديولوجياتها عن تجاوز الحرب الأولى، حرب البقاء، حرب الصراع مع الطبيعة.

كوفيد – 19 كارثة صحية غالية الثمن لكنها أزمة عابرة أرادت من خلالها الطبيعة معاتبة الإنسان ومعاقبة كبريائه وإعادته إلى حجمه الطبيعي عساه يعيد ترتيب أولوياته ليكون الهاجس الأهم في المستقبل القريب متمحورا حول قضايا الطبيعة والمناخ، كأن يضع في مخططاته أن تكون وزارات الصحة والبيئة والمناخ حقائب سيادية في المقام الأول لأن المعركة القادمة ستكسر نمطية كل ما سبق من حروب كلاسيكية.